كلمة الدكتور شكري فيصل[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

سيدي الأستاذ الرئيس ، سادتي الأجلاء

منذ نحوٍ من ثماني عشرة سنة ، حين قادتني خطاي في كثير من الحياء والتهيب إلى هذه المنصة أواجه جمهوراً من الناس في واحدة من المحاضرات التي كان يدعو إليها مجمعكم الموقر — لم يكن في الذي أطمح إليه أو أفكر فيه أن تلتقي أيديكم الخيّرة السمحة ، في ثقة وطمأنينة ، على أن تأخذ يدي إلى هذه المنصة ذاتها ، لا لأحاضر ، وانما لأشكر لكم — بالدمعة المترقرقة لا تستهل ، واللسان الحيي لا يبين — أنكم فكرتم بي حين فكرتم في أقدس المهمات التي تضطلعون بها ، مهمةِ الحفاظ على اللغة ؛ وأنكم أشركتموني في أكرم جهاد ، هو الجهاد في سبيل العربية ؛ وأنكم أحللتموني منكم هذا المحلّ الكريم الذي أقصر عنه .. ولكني آمل أن أكون كفاءً له .

ولئن تعثرت بي الخطى أولَ الأمر في هذه المسافة القصيرة بين مقعد المستمع وموقف المحاضر ، فقد كان يمازجني بعدُ شيءٌ من اطمئنان عميق .. ذلك أني كنت أحسّ أن قلباً كبيراً يملؤه العطف والحب كان كأنما يرعاني ويحوطني ، ويبصّرني الطريق ، ويتمنى لي الخير الواسع العريض .. لم أكن قادراً على أن أنظر اليه ، ولكنما كنت أجد في نفسي خلال ساعة كاملة وأنا

(١) ألقاها الدكتور شكري فيصل العضو العامل الجديد يوم حفلة استقباله .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أحاضر — جناحه المبسوط ، ورعايته الضافية ، ونظرته التي كانت مزيجاً رائعاً محكماً من التشجيع والتقدير .

وحين انصرف الناس كان هذا الانسان الكريم الذي أحسستُ وجوده في وجودي ، وتنسمت عطفه — وأنا أعاني للمرة الأولى مثل هذا الاختبار — نفحة ربيعية عطرة — يشدّ على يدي ويأذن لي أن أكون معه في غرفته ويتيح لي ، في مباسطةٍ حلوة رصينة وحديثٍ قيم غنيّ ، أن استشعر الرضا والسعادة .

أليس من الحرج أشد الحرج ، أيها السادة الأجلاء ، أن أجدني اليوم ، وبعد كل الذي كان من تعاقب السنين والأحداث ، مسوقاً إلى أن أتولىّ أنا الحديث عنه دون أن تكون لي بعض قدرته ، وأن أمضي أقترب من مكانه دون أن يكون لي بعض مكانته ! .

هل لي بعد هذا من حاجة إلى أن أسألكم الصفح إن تعثرت بيَ الخطى كذلك هذه المرة ، وقعد بي تهيبُ زميلكم الراحل عن الوفاء بحقه ، وأثره عن الاحاطة بفضله ؟

ولولا أن هذا الأمر في حديث السلف عن الخلف تقليدٌ من تقاليد مجمعكم الموقر لرجوتُ أن يكون لي عنه مندوحة .. ولكنْ عينا خليل مردم اللتان كانتا تنظران إليّ وأنا أرقى هذه الدرجات أول مرة ما ماتتا .. إن بريقهما الذي كان متصلاً بما وراء الغيب ، نافذاً إلى ما وراء المدى ، لا يزال هو البريق .. وحفنة تراب لا تذهب به .. فما يموت الخالدون ، وانما يبدءون خلودهم ساعة يقال إنهم ماتوا .. ذلك أنهم أضحَوْا — بالذي خلّفوا من أثر ، وأحدثوا من أدب — جزءاً منا ، من تاريخنا وإرثنا .. إنهم في الهواء الذي نشمه ، والروح التي نحيا بها .. اننا بضعة من هذه الأرواح التي تملأ هذا المكان ، منذ كان .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أيها السادة

لم يكن ذلك أول عهدي بالمجمع .. فقد كنا نراه في غدوّنا ورواحنا .. كان في نظرنا — نحن الذي كنا نسكن الظاهرية ونساكن آلاف الأرواح فيها، ونصغي إلى آلاف الأصوات الغامضة التي تحتمي بها، وتتراءى لنا صور من أحلامنا ومستقبلنا في كلّ صفحة كتاب منها — كان المجمع في نظرنا هذا الصرحَ الممرّد .. وكأنما صيغ من عالم آخر .. كان يُخيّل إلينا أن حجارته غير الحجارة، وأن جدارنه غير الجدران، وأن أبوابه غير الأبواب .. كنا نختلس النظر إلى البحرة التي تتوسط باحته وكأنما هي غدير، منبعه ما وراء الأفق، وتتراءى لنا شجيراته وكأنما هي من شجر الجنة .. وحين كان يقدّر لنا أن نستمع إلى محاضرة فيه فقد كانت تلك في عرفنا رحلة من هذه الرحلات الأسطورية المثقلة بالغرائب والغنائم .. وهل من عجب ؟.. أليست كتب الظاهرية التي كنا ننفق فيها بياض النهار نتقفّها، وشيئاً من سواد الليل نُمنمنا، هي من صنع مثل هؤلاء الكملة الفضلة الذين يدخلون إليه في ماتع الضحى ويخرجون وقد زال النهار ؟

أيها السيد الرئيس

هذه الصورة الأسطورية في عقولنا الغضة ونحن في طراوة العمر ليست من الخيال في شيء .. إن بينها وبين الحقيقة هذا النسب الموصول .. ولكننا نحن الذين كنا نتمثل في طفولتنا هذه الحقيقة هذا التمثل .. إن مجمعكم الكريم ليس بناءً من البناء، ولا ندوة من الندوة .. وإنما هو هذه المثابة التي صاغتها أحلام العربية وتطلعها، وأقامت أحجارَها — طبقة بعد طبقة — آمالُها العِراض في أن يكون لها، لا مثلُ حياتها التي كانت لها، وانما مثل سيادتها وغلبتها كذلك .. إن أبوابها لا تقود إلى مثل ما تقود إليه الأبواب من غرف

ومكاتب ، وانما تقود إلى مثل ما تقود إليه المساجد من عبادة وتبتّل وانقطاع الى الله ، في قرآنه المبين وفي لغة هذا القرآن المبين ، في عربيته التي دعا إليها وفي الإرث الذي خلّفته هذه العربية .. إن الانسان حين يتقدم إليكم ، إلى هذه المحاريب التي يتناثر فيها الحرف العربي ، يغلبه على وجوده العاديّ الكثيف وجودٌ مقدس شفاف ، وانه ليلقى هـذا في قلبه صفاء ، وفي عقله تفتحا ، وفي عينيه ألوانا غير الألوان .. إنكم — أيها الخالدون — لستم ناساً من الناس وانما أنتم الصفوة من الناس الذين أراد الله لهم أن يحملوا طرفاً من دعوته ، وألقى عليهم هذا العبء في مثل هذه السنّ التي يحسّون فيها الحاجة إلى أن يستريحوا من عناء ، وأن يخلدوا إلى راحة ، وأن يباعدوا ما بينهم وبين الإرهاق فاذا هم مقبلون على العناء الأشدّ ، مصروفون عن الراحة الى العمل ، واذا هذا الإرهاق النقيّ يعاودهم فيكون له في نفوسهم أطيب مذاق ، واذا هم يألفون ، في رضى وسماحة وايمان ، هذه الحياة الجادّة التي لا تعرف إلاّ العمل تقبل عليه حين تكون فيه ، وتفكر فيه حين تُصرَف عنه ، وتحيا به مع كل ساعة من ساعات اليقظة والنوم في الليل والنهار .

* * *

قلتُ إنّ أمسية السابع من نيسان من عام أربعة وأربعين وتسعمائة وألف لم تكن أول صلتي بالمجمع .. واسمحوا لي كذلك أن أقول إن الحديث الطيب الذي سمعته في أعقاب المحاضرة من الرئيس الراحل لم يكن أول حديث .. فقد لقيته قبل ذلك بأعوام .. لا أطمع أن يعرفني ، ولا أتطاول الى معرفته .. لقيته في طائفة من الكتب والدراسات التي كان يصدرها عن بعض أعلام الشعر والنثر ، وفي طائفة من المجلات والجرائد .. وكان أولَ ذلك كتابٌ أهدته إليّ مدرسة التجهيز — سَقيا لأيامها وأساتيذها — عن الجاحظ يحمل اسم الخليل ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولا يزال في أوراقي عدد جريدة القبس في ٢٧ أيار من سنة خمس وثلاثين وتسعمائة وألف الذي يحمل في صفحته الأدبية — أيام كانت الصحافة تعيش في حضن الأدب — قصيدته الرائعة : البحر .. وفي مكتبة خالي محدث الشام وعالمها الاستاذ الشيخ محمود ياسين ، طيّب الله ثراه ، قرأتُ خليل مردم في مجلة الميزان والرابطة الأدبية ، وفي مجالسه التي لا أعرف أن مثلها كان في دمشق كلها بحثاً ومدارسة ، طرافة وعمقاً ، مشاركة في ألوان الثقافة الاسلامية والأدبية ومتابعة للانتاج المطبوع على اختلافه — في هذه المجالس عرفت الخليل في مجلة الثقافة ، عرفت مقطوعته عن الجمال ، وقصيدته المنثورة عن الشاعر ، وصفحات من الشعر كان ينشرها بين الحين والحين .

* * *

أيها السادة

أترون أني إنما حدّثتكم عن الخليل من لدن أن عرفته .. أتعتبون عليّ أني لم أمض في هذا الحديث على نحو من التأريخ المتصل والترجمة المتلاحقة .. لكم ذلك .. وإني لأعترف به واعتذر — إن شئتم — عنه .. فاسمحوا لي أن أبدأ هذه السيرة النيّرة من مطالعها الأولى .

بين التاسع من المحرم من عام ١٣١٣ هـ وبين الخامس عشر من المحرم من عام ١٣٧٩ كانت حياة الأستاذ الرئيس خليل مردم بين الناس .. أما حياته قبل ذلك فقد كانت موصولة في أصلاب أسرتين من أكرم أسر دمشق وأغلاها هما أسرتا مردم بك والحمزاوي .. وأما حياته بعد ذلك فستظل قائمة في ضمير كلّ هذه الأجيال التي تتعاقب في هذا الوطن الطيب ، تترنم بالذي أهدى إلى غوطتها من نشيد ، وأضفى على يرادها من غناء ، ومجل لبطولاتها من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

روائع ، ووقف حياته على أدبها ولغتها وتراثها ، حفاظاً عليه ، وإغناءً له ، وكشفاً عن خبيئه .

وما أريد أن أملأ الوقت - وزميلي الاستاذ المبارك يرقبني - بدراستي لحياته وشعره .. سأخلّي بيني وبين الذي كتبت .. وسأروي لكم حياته على النحو الذي كتبه بيده ، في أسلوب يملؤه التواضع الجمّ والحياء العفّ ، وسأقف بكم عند مواقف من شخصيته وشعره .

حياته :

ولدتُ بدمشق ليلة أول تموز من عام ١٨٩٥ ، وقبل أن أبلغ السابعة من عمري جعلت أذهب إلى الكتّاب في سنّ مبكرة جداً مع ابناء عمّي ، ولما تجاوزتُ العاشرة من عمري دخلت مدرسة الملك الظاهر الابتدائية الرسمية وانتقلت منها بعد ثلاث سنوات الى المدرسة الإعدادية ، ولم أمكث بها الا سنة وبعض السنة فتركتها لأن مدارس الحكومة وقتئذ لم تكن تعنى بالعربية ، وشرعت أتلقى دروساً خاصة في العربية وآلاتها ، كما أخذت طرفاً من الفقه عن الشيخ الجليل عطا الكسم وطرفاً من الحديث عن الشيخ الجليل بدر الدين الحسني .

وكنت مع بعض رفاقٍ لي في الطلب نجتمع في أوقات معينة لمراجعة الدروس ومطالعة بعض كتب الأدب ، وكان اكثر اعتمادي على دراستي الخاصة .

وكنت منذ عقلت على نفسي أجدني ميالاً للشعر وقراءته وحفظه ، وقد بدأت أقول الشعر قبل أن أبلغ خمس عشرة سنة من عمري . واتفق أن والدي اطلع على شيء من شعري فنهاني عن قوله حتى أدرس العربية .

ولما جلا الأتراك عن دمشق أواخر عام ١٩١٨ وقامت الحكومة العربية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

سميت مميّزاً لديوان الرسائل العامة ، وفي سنة ١٩١٩ عينت مدرساً للانشاء في مدرسة الكتاب والمنشئين التي جملتها الحكومة لأمورها خاصة ، ولما أعلن استقلال سورية الأول وبويع الملك فيصل ملكاً عليها وتألفت أول وزارة سورية سنة ١٩٢٠ نقلت من ديوان الرسائل وسُميت معاونا لمدير ديوان الوزراء . وبعد ان دخل الجيش الافرنسي دمشق وبرحها الملك فيصل صُرفت من عمل الحكومة .

وفي ١٩٢١ أسس الادباء في دمشق جمعية الرابطة الأدبية فانتخبت رئيساً لها ، وكان من أعمال هذه الجمعية أن أصدرت مجلة الرابطة الأدبية ، ونشرت كتاب معاني الشعر الاشناندانی ، ولي فيهما عمل .

وفي ١٩٢٥ انتخبت عضواً في المجمع العلمي العربي وكانت أطروحتي كتيب شعراء الشام في القرن الثالث .

ودرست بدمشق اللغة الانجليزية مدة يسيرة ثم ذهبت في أيلول ١٩٢٦ الى لندن لأدرسها بين أهلها فمكثت في لندن ثلاث سنوات حضرت في أثنائها محاضرات في اللغة الانجليزية وأدبها بجامعة لندن فضلاً عن الدروس الخاصة التي كنت أتلقاها هناك وعدت الى دمشق في تموز ١٩٢٩ .

وفي أواخر هذه السنة شرعت أدرّس الادب العربي في الكلية العلمية الوطنية واستمر عملي بها تسع سنوات ألفت أثناءها سلسلة أئمة الأدب العربي ظهر منها خمسة أجزاء وهي الجاحظ ، وابن المقفع ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد والفرزدق .

وفي سنة ١٩٣٣ أصدرت مع الدكاترة جميل صليبا وكامل عياد وكاظم الداغستاني مجله الثقافة ، فعاشت سنة واحدة .

وفي سنة ١٩٤١ انتخبت أمين سر عام للمجمع العلمي العربي .

وفي ١ تموز من سنة ١٩٤٢ عُهد إليّ بوزارة المعارف .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأعيد انتخابي لأمانة سر المجمع سنة ١٩٤٨ .

وفي سنة ١٩٤٩ انتخبت عضواً مراسلاً لمجمع فؤاد الاول في القاهرة .

وفي السنة ذاتها انتخبت عضواً مراسلاً في المجمع العلمي العراقي .

وكذلك عهد إليّ في سنة ١٩٤٩ بوزارة المعارف والصحة .

وقد حققت ديوان ابن عنين «من مطبوعات المجمع» سنة ١٩٤٦ .

كما حققت ديوان علي بن الجهم وجمعت تكملة له «من مطبوعات المجمع» سنة ١٩٤٩ .

وحققت ديوان ابن حيوس في جزئين صدرا في مطبوعات المجمع سنة ١٩٥١ .

ثم حققت بعد ذلك ديوان ابن الخياط ، وقد صدر في مطبوعات المجمع سنة ١٩٥٨ .

ولي ديوان شعر لم يطبع بعد ولكنّ أكثر قصائده منشورة في الجرائد والمجلات العربية ، كما ترجم بعضها الى اللغتين الانكليزية والفرنسية (*) .

وفي سنة ١٩٥١ عينت وزيراً مفوضاً لسورية في بغداد .

وفي السنة نفسها انتخبت زميل شرف في مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية في جامعة لندن ، كما انتخبت عضواً مساعداً في تحرير دائرة المعارف الاسلامية .

وفي سنة ١٩٥٢ انتخبت عضواً في مجمع البحر المتوسط في بالرمو .

وفي سنة ١٩٥٣ انتخبت رئيساً للمجمع العلمي العربي بعد وفاة الاستاذ الرئيس محمد كرد علي .

وفي السنة نفسها عينت وزيراً للخارجية ولما سقطت الوزارة انصرفت الى العمل في المجمع .

وفي سنة ١٩٥٦ انتخبت زميل شرف في جمعية البحوث الاسلامية في بومباي .

وفي أواخر السنة نفسها انتخبت عضواً مراسلاً للجنة الدولية لتاريخ الانسانية الثقافي والعلمي في باريز .

(*) طبع الديوان بعد وفاة الفقيد باشراف ولده الصديق الكريم الأستاذ عدنان مردم بك ، وصدر في مطبوعات المجمع سنة ١٩٦١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

شخصيته :

تلك — أيها السادة — حياته ، فماذا عن شخصيته ؟

الحق أن شخصية خليل مردم موكب رائع من مكارم الخلق ، يستعلي فيه : تعففه ، ونبله ، واتزانه .

أما تعففه فكان بلغ حياته العامة والخاصة .. كان لا يتطلع إلى شيء وانما كانت الأشياء تجري إليه بمقدار .. وكان لا ينظر إلى ما عند غيره فقد كان غنياً بالذي عنده ، مطمئناً الى جدواه ، راضياً عن نهجه .. وكان يرى أنّ مكانه من العلم فوق مكانه من السياسة ومن ناسها ورجالها واحداثها ولذلك كانت هذه السياسة تسعى إليه ، وتذلّ لهذه الهالة المقدسة التي تحوطه .. وكان في معتصمه من ثروته وعمله فيها لا يصدر عن رغبة في الاستزادة منها ولا طمع في تنميتها ، وانما عن استجابة لهذا التعفف حتى يظلّ له — والناس هم الناس — تمنعه وإباؤه .

وأما نبله فقد بدا في صلاته بذوي السلطان فكان ترفعاً عنهم ، وفي صلاته باخوانه فكان وفاءً لهم وبرّاً بهم من حيث لا يدرون .. لم يكن يسمع الكلمة النابية بَلْه أن يقولها .. وكان أقربَ إلى الصمت فاذا تحدث لم يقل إلاّ خيرا .. وما عرَف الذين خالطوه والذين عمِلوا معه أنّه تعمّد النيل من إنسان أو الإساءة إليه ، وربما سمع الاساءة ممن هم دونه فأغضى عنها .. وكذلك بفعل الذين تكون أصالتهم هي التي تقودهم ، ولا تكون المناصب الموقوته أو الأحقاد الخبيثة أو الأهواء الجامحة أو غفلات الزمن — ولكن الزمان يعفو ليصحو — هي التي تملي عليهم سلوكهم ، وتشق أمامهم طريقهم .

وأما اتزانه وأناته فقد كان يصدر دائماً عن رأي ويمضي دائماً إلى غاية .. لم يكن يبتسر الأشياء ولا يقتضبها .. ولم يكن يتكلم حيث يقتضي الصمت ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولا يحكم حيث يقتضي التوقف ، ولا يبدي الرأي حيث لم يبدُ له الرأي ..
كانت كرامتـهُ ، كرامةُ المعرفة والفكرة ، وشرفُه شرفُ الكلمة والقصيدة
ـ أسمى من أن تُسخَّر لشهرة زائفة أو غرض زائل .. ولذلك كان اتزانه
وكانت أناته بعضَ هذه الشخصية الوادعة التي تؤثر على الصخب الهدوء ، وعلى
التوثب التدرج ، وعلى الثورة التطور ، وتفضل الوقوف والتريث أو الانطلاق
من المبدأ إلى الغاية على الانطلاق الذي لا بداية له ولا غاية .

وجملة ما يقال في هذه الشخصية أنها شخصية مثلث الحكمة فوهبتها الحكمة
وداعتها ودمائتها والجانب الليّن منها ؛ وتمثلت بها فاذا الحكمة ماؤها الذي به
ترتوي ورُوائها الذي به تتألق ، واذا الحكمة طابع الحياة ، تصدر الحياة عنها
وتغتذي بها وتنتسب إليها .

ومهما يكن مصدر هذه الحكمة أكان الحذرُ بعضَ ينابيعها ، أو كانت التروية
والتفكير بعض ينابيعها ، فانها تظلّ ، على اختلاف مصادرها ، تتوّج سيرته ، وتحكم
مسيرته ، وتضفي على سلوكه هذه المهابة وهذا الإكبار .

وحول هذه الحكمة كان يطوف هذا الموكب الرائع من أخلاق خليل مردم ،
وفي محاورها يدور .. إن حكمته هي التي جعلت نبله تواضعاً ، وصيّرت تعففه
وترفّعه إباءً ، ومنحت اتزانه واناته هـذا التقدير .. إنها لم تكن تلقيناً ولا
مُدارسة ، وانما كانت أصالة وطابعاً .. لم تكن قطّ أبياتاً من قصائد ،
أو قصائد من ديوان ، وإنما كانت سلوكاً في حياته ، ونهجاً في تصرفاته ،
وخطة في معاملاته .. انها هي التي منحته هذا الاعتدال الذي نملك ، مطمئنين ،
أن نقول عنه إنه كان أبعاد حياته كلها طولاً وعرضاً وعمقاً .. حتى ليبدو ، في
مثل حكم النادر ، أن نجد إنسانا له مثل اعتدال خليل مردم الذي تظهر شواهده
في كل سلوك ، وتتبدى أدلته في كل تصرف .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بل إن حكمته في سلوكه هي التي استطاعت أن تضمر حيث كان يجب عليها أن تضمر ، لتوائم ما بينها وبين الشعر .. إنها لم تطغ على شعره لأن بين الشعر وبين الانفعال هذا النسبَ المتشابك المتلاحم .. وقد تكون ألقت على هذا الانفعال بعض الظلّ ؛ وقد تكون جعلت منه ، في بعض مناحيه ، الانفعال الحكيم ، إن صحّ التعبير .. ولكنها ظلت بعيدة أن تسيطر عليه سيطرة قاتمة داكنة .. انها تركت له لحظات الإلهام والاشراق ، وساعاتِ التوتر والقلق ، وليالي الطيف والأرق ؛ وان كانت كفكفت من حدتها .. واستطاعت هذه الحكمة ذاتها أن تجمع فيه بين سلاسة البحتري وقوة أبي تمام ، وان تؤلف عنده بين المتنبي الشاعر والمتنبي الحكيم ، وأن تجمع عليه بين المعرّي الشاعر الثائر والمعرّي الكاتب الناثر .. بل إنها هي التي ألفت بينه وبين ذاته شاعراً ودارساً في آن واحد .. والانسان الحكيم في الرئيس الراحل استطاع أن يقف حيث أراد له الانسان الشاعر ، وأن يلتقي به حيث أراد أن يلتقي ، وأن يتزاوج معه أو يتعاقب حيث استطاب هذا التزاوج والتعاقب .

أليست الحكمة والشعر ـ أيها السادة ـ هبتين من هبات السماء ؟ .. ألم يكن الخليل في ذلك واحداً من هؤلاء الذين ربتّهم السماء ؟! .

شعره :

بقي أيها السادة أن أتحدث إليكم عن شعره . والحديث عن شعر الخليل تأريخ ونقد ومناقشة لكل شعرنا المعاصر .. وما يتسع لذلك وقت . وأحسب أنه يرضيكم أن اجتزئ بنقطتين : نظرته الى الشعر ومذهبه الشعري ..

١ ـ نظرته الى الشعر :

قد تكون نظرة خليل مردم الى الشعر متعددة الجوانب .. ولكن قوامها يتركز

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في أن الشعر عنده لم يكن للمناسبات الطارئة وانما كان للأحداث الخالدة أو الأحداث التي تترك آثارها الخالدة في نطاق الفرد أو الجماعة على السواء .. ولذلك كان هذا الشعر لا يُصاغ ليُنشد ، وانما يُصاغ — أغلب الظن — ليقرأ .. وأنه على حدّ تعابير نقادنا القدماء إنما يقال تأدبا أو تطربا ولا يقال تكسبا .. قد يزيد التكسب الشعر حماساً أو ضجيجاً ، وقد يُحكم موسيقاه الخارجية ، ولكن موسيقاه الداخلية تظلّ وفيها بعض الخلل من أثر هذا التناقض بين الاداة الرفيعة الخالدة وبين الغرض التافه العارض .

والفرق كبير في العمل الشعري بين أن اتمثل الجمهور يستمع إلى إلقاء القصيدة ويتذوقها وأن أصوغ القصيدة بوحي من هذا التمثل ، وبين أن أفكر في اللحظة الهادئة يخلو فيها انسان مثقف يقرأ هذه القصيدة مكتوبة ليستمتعَ بها ويتذوقها .

والفرق كبير بين التفكير في صدى القصيدة وعائدة هذا الصدى ، وبين التفكير في الذي يكون لها من رنين في ضمير المستقبل .

والفرق كبير كذلك بين العبودية للشهرة في العمل الفني ، وبين التعبد في محاريب هذا العمل الفني .

وخليل مردم كان من أولئك الذين حدّدوا نظرتهم الى الشعر على أنه فنّ ، وصناعة رفيعة ، وجمهور قد لا يكون كبير العدد ولا قريبَ التأثر داني الانفعال ، ولكنه يملك قلبه ، في مكانه من عالمه الداخلي ، دون أن ينتزعه ليجعله على أطراف أذنيه .. وقد يكون هذا الجمهور أفراداً من كل طبقة ولكنه ليس وقفاً على طبقة بعينها .

هذه النظرة إلى الشعر هي التي قادت خليل مردم إلى مذهبه الشعري فما هي معالم المذهب ؟

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ب — مذهبه الشعري :

في الوسع أن نقول إن ركيزة هذا المذهب ، عموده الفقري ، التثقيف بكل مظاهر التثقيف ، وبكل الذي يقود اليه من مسالك العمل الدائب الواعي .. بالأناة التي يفرضها ، وبالروية التي يلتزمها ، وبالايجاز الذي يقود إليه وينطوي فيه .. بالإثارة الحكيمة — إن صحّ هذا الجمع بين الاثارة والحكمة — التي يأخذ بها ، بالنظرة التي تزاوج بين العقل والقلب ، فتخرج بالسخرية عن الثورة ، وبالتهكم عن الصخب ، وبالمقارنة والمشاكلة عن الغيظ المستشيط .. بكل هذه المظاهر وأمثالها من التثقيف الذي لا يناهض الطبع ولكنما يسانده ، ولا يخاصمه وانما يعاضده ، ولا يقف منه موقف النقيض وانما يتكامل معه حتى تكون منهما هذه اللحظات البارقة في أفق الشاعر ، فيها النار والماء في آن .

وقد يخيّل إلينا أحيانا أن بين الطبع والتثقيف شيئاً من عداوة ، وقد تتمثل هذه العداوة في أذهاننا في صورة الشاعر الذي يُبدي ويعيد ، ويُثبت ويمحو ، ويكتب ويشطب .. ومثل هذه الصورة الظالمة هي التي تخرج بالتثقيف عن معناه ، وتضع له هذه الظلال الكابية ، وتربط بينه وبين العبودية في الحديث عن عبيد الشعر ومحككيه .. على حين ان التثقيف ، في حقيقته ، ليس إلاّ هذا التخمير الهادئ لكلّ هـذه الأجواء النفسية التي تأتي من لقاء ما بين عالمنا الداخلي والعالم الخارجي .. إنه ليس إلاّ هـذا الإعداد البطيء للخروج بالذي نهمس به في أعماقنا من منطقة النجوى الداخلية إلى منطقة البث حيث ترتسم الكلمة على الشفة ، ومن نبض الجنان الى نبض اللسان .. ومثل هذا التثقيف لا يمكن أن يكون موضع عداوة للطبع وانما هو صداقة له وتعميق ، حتى يكون فوق أيّ طبع آخر .. إن التثقيف ليس عبوديةً بحال

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وانما هو تعبد .. انه ليس انفلاباً ، وانما هو غلبة تتيح للعمل الفني أبعد آماده من الإحكام .

* * *

مثل هذا التثقيف ، وقد رأينا أنه كان بداية الشاعر ومنطلقه ، هو الذي حقق لخليل مردم في المجال الشعري انتصاراته الثلاث : في الوصف وفي وحدة القصيدة وفي سلامة اللغة والتراكيب .

أ — فأما في الوصف فنحن ، نقادا ومتذوقين ، مجمعون على أن خليل مردم كان واحداً في مقدمة الوصافين عندنا ، في ماضي أدبنا العربي وفي حاضره ، استطاع أن يقود الشعر خطىً فساحًا في هذه الطريق الوعرة التي لا يقوى عليها إلاّ الأقلّون .. لقد كان الوصف ذروة يصل إليها الشعراء ثم ينحدرون عنها ، يبلغونها ثم لا يتمكنون منها ، فيُقصرون .. يحتالون عليها بهذا الحشد من الانفعال الذي يقوَوْن على سرده ، ولكنهم لا يقوون على وصفه .. وتسعفهم فيه التعابير المتبعة ، ولكن لا تسعفهم فيه الصورة المبتدعة .. فلما كانت هذه المدرسة الشعرية الحديثة التي كان الاستاذ الرئيس علماً من أعلامها ، استطاع الوصفُ ، من حيث هو غاية وأداة في آن واحد ، بكل الذي يدفع اليه من دقة وعمق ونفاذ — استطاع الوصف أن يكون مظهراً من مظاهر تطوّر الشعر العربي نحو آفاقه الأرحب .

والحق أننا نسيء إلى الوصف حين نفهم منه أنه الصورة بمعناها القريب أو أنه الصورة في مظاهرها المختلفة من التقاط هذا الشبه ، أو اقامة هذه الاستعارة .. ذلك أن الوصف أرحب أفقاً وأبعد مدى .. لأنه قدرة على إحكام النظرة وبراعة الالتقاط وروعة العرض وكمال المشهد .. إنه بهذا المعنى ليس خصماً للانفعال ولكنه قدرة على تبطين هذا الانفعال في مطاوي العملية الوصفية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وما أشد ما أتمنى لو أتيح لي أن أقرأ معكم قصيدة من هذه القصائد التي قالها خليل مردم في الطيف ، أو في البحر ، أو اغنية سكران وسكرى ، أو البرق .. ولكني أمي الأمنية ، فأنتم أقدر مني على استحضارها وتذكرها .

ب — وأما في وحدة القصيدة فقد استطاع خليل مردم أن يؤكد هذه الوجهة الجديدة للقصيدة العربية وأن يضع يده على حقيقة كبرى من حقائق العمل الشعري الحديث حين خرج بالقصيدة من أغراضها الكثيرة الى الغرض الواحد ، وحين جاز بها أن تكون تعبيراً عن كل ما يجيش في نفس الشاعر إلى أن تكون تعبيراً عن موضوع واحد يَجْمَع عليه ذاتَه كلَّها من كلِّ أقطارها .

إن القصيدة العربية في صورتها التقليدية مزيج متشابك من الأغراض ، يختلط فيها العارض بالأصيل ، والكليّ بالجزئي ، ويضيع فيها جانب التوحد في جوانب الكثرة ، وتظهر فيها النفس من جوانبها كلها .. فاذا هذا المزيج بَوْحٌ كامل يجمع بين الأهواء والرغائب ، والحب والحرب ، والاطلال والوصال ، والمديح والافتخار ، ويضع الحدث اليومي إلى جانب الحقائق الخالدة الكبرى التي نقع عليها في طريق الحياة .

واذا كانت قلة من شعرائنا على مدى تاريخنا الأدبي الطويل استطاعت أن تخلص من ذلك حين قصرت قصيدتها على الغرض الواحد ، واذا كانت هذه القلة استطاعت أن تضع وحدة القصيدة الى جانب تكثرها ـ فان عمل هذه القلة لم ينته إلى أن يكون « أصلاً » أو « تقليداً » من أصول الشعر العربي ، وانما ظلّ التقليد السائد أن يجمع الشاعر بين الغرض والغرض وان يرى في القصيدة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الواحـدة متسعاً لكل همسة أو نبض .. وظلت « الوحدة النفسية » — مفتعلة كانت أو عفوية ، مقلدة كانت أو أصيلة — هي الأصل .. فلما جاء العصر الحديث ، بهذه القيم التي تناهت إلينا فيما تناهى من الغرب ، كانت وحدةُ القصيدة العضويةُ ، وحدةُ موضوعها ووحدة تكوينها ، من بعض هذه القيم .. أخذ بها المحدثون من النقاد ، والمحدثون من الشعراء ، وألحّ عليها العقّاد والمازني وشكري ، واستجاب لها كثرة من شعراء المهجر ، وامتلأت بها أجواؤنا العربية ، وكان الشاعر الخليل في بلاد الشام في مقدمة الذين تنبهوا إليها وصدروا عنها .. كان حسّه المرهف هو الذي ساقه إليها ، وكانت نظرته المحكمة هي التي قربت بينه وبينها .. فاذا قصائده — في كثرتها الكاثرة — من هذا النمط الذي يربط فيه الشاعر بين نفسه كلها وبين موضوعه كله .. واذا هو لا يعتبر القصيدة ميداناً للقول في كل موضوع ، وانما هي ميدان للاستغراق في موضوع واحد .. تدور معه أحاسيسه ومشاعره ، ويَجْتَمع عليه عقله وقلبه ، وتتجاوب كل جزئية منه مع كلّ جزئية من نفسه ، في تناسق وتعادل واستواء .

وليس سهلاً ولا يسيراً ، أيها السادة ، أن يستطيع الشاعر هذه النقلة من أجواء القصيدة العربية وأن يفلت من ظلالها .. وليس بالهين ولا القريب أن يملك الشاعر الذي أُلِف التراث العربي وفقهه وعاناه هذه المعاناة الكاملة ، وبدأ منه انطلاقه ، وتابع في دروبه خطاه ، وتمثل شوارده وأوابده ، وعاشر جاهليه وإسلاميه ، وربط ما بينه وبينه بالاسباب القوية التي لا تنفصم ولا تبلى ، واستبدت به مفاهيمه وأساليبه ونظرته — ليس بالهين ولا القريب أن يكون مثلُ هذا الشاعر قادراً على أن يولّيَ وجهه قِبَل هذه الوجهة الجديدة ، وأن يغادر مفهوماً إلى مفهوم ، وأن يخرج من أسلوب إلى أسلوب ، وأن يستبدل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بالنظرة النظرة المخالفة ... فاذا استطاع ذلك على هـذا النحو من الهدوء والاتزان ، بعيداً عن صخب الثورة ، بعيداً عن جُفاء الزَّبد ، بعيداً عن مسالك التشكيك والإثارة التي يلجأ إليها أولئك الذين لا يعرفون ما يَعْنُون .. إذا استطاع ذلك في مثل هذا الحفاظ الرائع على روح اللغة العربية ومقدساتها ، فإن أقلّ ما يوصف به عمله أن الخليل كان في هذا النحو رائداً من الروّاد الذين يشقون الطريق الجديدة من ضلع الطريق القديمة ، ويزاوجون بينها وبينها في مؤالفة رائعة ، ويمضون سبيل الشعر بما يليه منطق التجديد الذي لا يعرف التنكر ، والحفاظ الذي لا يعرف الجمود .

ج — وأما في سلامة اللغة والتراكيب وفي الحفاظ على أقدارنا اللغوية فقد كان خليل مردم حريصاً على هذه السلامة مندفعاً وراء هذا الحفاظ .. كان يعتقد أن اللغة ليست ملكاً لواحد بعينه من هـذا الجيل أو من جيل آخر يتصرف بها كيف يشاء .. يشتتها ويفتتها ويطبخ بنظمها ويعرّضها إلى الفناء .. ليست ملكاً لهؤلاء الذين يثورون بها على حين يدّعون الغيرة عليها ، ويفصمون وحدتها على حين كلُّ قوتها في وحدتها .. وانما هي ملك لكلّ هذه الأجيال العربية المتلاحقة منذ كان أول صوت عربي حتى يرث الله الأرض ومن عليها .. وأنها لذلك يجب أن تبقى متصلة متماسكة ينقل بها الجيل عن الجيل تجربته ومعرفته ، وينضاف عن طريقها جديد إلى قديم ، حتى تظلّ ولها في نفوسنا مكانتها المزدوجة : مكانتها أنها لغتنا ، ومكانتها أنها لغة كتابنا ودينا وتراثنا .. إنها بهذا صلة ما بيننا وبين اخواننا ، والطريق الآمنة المطمئنة إلى مستقبلنا في أكرم صوره وأمثلها .

وواضح اننا لا نجد للأستاذ الرئيس أبحاثاً مقصورة على النواحي اللغوية ، ولكننا نجد في طائفة من المقالات النقدية التي كان يكتبها أنه كان يولي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هذه السلامة اللغوية حقها من العناية والتقديم .. كان يعقّب ويعتب ، ويصحح ويفضّل ، ويرى في هذه السلامة الأصل الذي يجب أن لا ينخرم بحال .

ولعلّه من هنا كانت كراهة الخليل للضرورات .. والضرورات من حق الشاعر ، ولكن الشاعر غنيّ عنها حين تستوي له قدرته على قوة الأداء وتمتين الصياغة .

تلك الثلاثة : الوصف ووحدة القصيدة والحرص على سلامة اللغة كانت أثراً من آثار التثقيف الذي أخذ به الشاعر نفسه .. ولكن شعر الخليل لا يقف عند ذلك .. ان له مميزاته الكثيرة الأخرى .. وانا لنطمع أن نلقى فرصة الحديث عنها ، وفاءً بحقه وأداء لحقها .

* * *

سيدي العلامة الرئيس ، سادتي

تلك ملامح كبرى مقتضبة من دراستي لحياة المرحوم خليل مردم وشخصيته وأدبه ، حرصتُ على أن أذكر فيها بالخطوط الأساسية التي تنتظمها ، وأن أضع اليد على المميزات التي تتفرّد بها .!

وواضح أني لم أشأ أن أتحدث عن عمله في المجمع منذ انقطع اليه سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة وألف ، فأنفق فيه خلاصة تجربته ، وزبدة حكمته ، وصفوة معرفته .. ذلك أنكم وزملاءكم من السادة الأعضاء تعرفون من أمره في ذلك فوق ما أعرف أو يمكن أن أعرف .. لقد زاملتموه وزاملكم ، ولازمتموه ولازمكم ، وأحببتموه وأحبكم ، ووثقتم به فوكلتم إليه أمر رئاسة المجمع بعد سلفه العلامة المرحوم الأستاذ كرد علي ، ولقد كان بينكم ودّ مقيم وتعاون مثمر ، واستطعتم بفضل هذه الروابط من الودّ وهذه الصلات من التعاون أن تتابعوا رسالة المجمع وأن تمضوا قُدُماً في تحقيق دعوته .. وتجاوزتم في ذلك حدود هذا الاقليم من بلاد العرب إلى الأقاليم الأخرى التي تتكامل معه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وحرصتم على أن يكون ما بينكم وبين زملائكم الخالدين في القاهرة هذا اللقاء المثمر الموفق وبذلتم فوق ما أبقت لكم الأيام ، من جهد وقدرة .. وكأنما لم يَعُدْ لكم في الدنيا كلها من أمل إلاّ هذه اللغة ، رعايتها وخدمتها .. لأن الدنيا كلها ، عندكم ، ركزت في هذه اللغة .. ولذلك لم يكن يلقاكم من يلقاكم إلا وفي يدكم كتاب تنظرون فيه ، أو بحثٌ تعدونه ، أو كلمة تنقّرون عنها على حدّ تعبيرك أيها السيد الرئيس ، في خطاب استقبالك عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية في الجمهورية العربية المتحدة .. أتذكر قولتك : « فأنا لست سوى نقّار بسيط ينقر في دمشق منذ ثلاثين سنة عن المصطلحات العلمية .. » ، قد تنسى ما قلت ، ولكن الزمن لن ينسى ما نقرت عنه وما كشفت .

ومعنى هذا أن طبيعة العمل الصادق المخلص في مثل هذه المجامع إنما هو نوع من الرهبنة المتبتلة ، أو هو نوع من التصوف الذي يبلغ حدّ الاستغراق في العمل والفناء فيه .. إنه في جوهره تعشّق يجاوز حدود الوله ، فاذا أنتم لا يطيب لكم شيء مما يطيب للناس ، ولا يحبب إليكم من دنياكم شيء مما حُبب إليهم ، وانما تتفردون بحب العربية وحبّ من يحبّها .. وإذا العمل في رحابكم نوع من الاستقطاب لكل قوى النفس ومواهبها .. وما دخلتُ المجمع مرة إلاّ وأعداني هذا الشعور وتملكني .. إن المرء يحسّ وهو يخلو إلى نفسه ، في هذه المحاريب ، أنه منقطع عن العالم من أجل خير هذا العالم نفسه .. إنه ليس مقطوعاً عنه ولكنه منقطع .. رغبة أن يتصفّى من هذه العوائق التي تشدّه ، والعلائق التي تجتذبه ، لكي يخلص له هذا الانقطاع ، ولكي يحقق هذا الانقطاع أطيب الغايات وأغلى الثمرات ، وليحمل إليه جديداً من إكسير الحياة الذي تجدده اللغة ، في صقلها أو ضبطها أو تنسيقها . إن عملكم رحلة بعيدة في عوالم نفسية واجتماعية زاخرة .. البسطاء يظنونها رحلة قريبة تقف عند الكلمة أو الحرف ، ولكن الذين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يدركون مكانة اللغة يؤمنون أنها رحلة مثقلة بالخير ، بعيدة الرؤى ، مفتحة الحدس ، وأن مدى ما يكون من ربح وخير فيها مُتساوقٌ مع مدى ما يكون من جهد ومشقة .

* * *

وإذا كانت هذه طبيعة العمل في المجامع بوجه عام فانها — واعذرني أيها السيد الرئيس وأيها السادة الأعضاء إذا تحدثت إليكم عن بيتكم الذي تدعونني إليه وتفتحون لي بابه — فانها بالقياس إلى مجامعنا العربية وإلى لغتنا العربية يجب أن تكون الطبيعة الأولى التي لا تَشْرَكُها معها طبيعة أخرى .. ذلك أننا أمام عمل متشعب شديد التشعب ، معقد شديد التعقيد .. أمام تركة مثقلة هي — من نحو — نتيجةٌ لكل هذا التخلف الطويل منذ أخذ الخيط اللغوي يَنْسُل من نسيج الحياة العربية ، يبدو حيناً بالياً ويبدو حيناً متقطعاً ويبدو في أقل الأحايين على صفائه ... ثم هي نتيجة — من نحو آخر — لهذه الحياة الجديدة .. عفوَكم فقد أخطأت الكلمة .. فكل ما في الحياة أضحى جديداً أو قل متجدداً لا يني فيه النسخ ، ولا يكاد يستقر الناسخ حتى يؤول إلى منسوخ .. ومع ذلك فلا بدّ لنا ، سواء اتجه التفكير وجهة قومية أو وجهة انسانية أو وجهة اجتماعية ، من أن نجهد لنلحق بالركب ، ولنواكب ما بين اللغة وبين الحياة قبل أن ينفصم الذي بينهما .. فنحن لا نواجه تحدياً في حياتنا السياسية فحسب ولكننا نواجه تحدياً كذلك في أخص خصائص وجودنا ، في لغتنا ، وما لم يكن عملنا ، بتنظيمه ودقته وتشعبه ، قادراً على أن يغالب هذا التحدي وأن يغلبه فان الميادين الأخرى — أيًّا كانت — إلى شيء من عقم مخيف .

إنكم قد تظنون ، أيها السادة ، في هذا أني أتحدث عن السياسة في بيئة تجهد في أن تبتعد عنها .. ولكن ما إلى معنى السياسة اليوم أردت ، وانما أردت من السياسة سياسة هذه الحياة التي تواجهها أمتنا العربية ، ومن ورائها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كل مجتمعاتنا الاسلامية والشرقية ، والتي تؤلف معركة واحدة : ساحاتها القريبة الدانية هي هذه الساحات المتصلة بالحكم والسياسة ، ولكن ساحاتها العميقة التي توجه مصائرها والتي تتعلق بها هـذه المصائر إنما هي في هذه الساحات الأخرى ، ساحات اللغة والأدب والعلم والمعرفة والثقافة والفن والقدرة على مرافقة الركب الانساني المتقدم .

فاذا اختار المجمعيون الجبهة العريضة أو الجبهة الخفية .. وإذا وقفوا على الثغور يحمون هذه الأمة من أن تؤتى من حيث تشعر وتفكر وتنطق ، فانهم انما يؤثرون نوعاً من الجهاد الأكبر على الجهاد الأصغر .. لأنهم حين يحفظون الألسنة والأقلام من أن تثبلبل أو تضطرب فانما هم يحمون شيئاً أصيلاً في صلب مقدساتنا وجوهر كياننا .. وليس هنالك ويلٌ بعد الويل الذي يكون من اضطراب الألسنة والأقلام .

قلت إنها جبهة عريضة خفية .. وكنت أريد أن أقول إنها الجبهة القاسية ، ذلك لأننا في حياتنا اللغوية نقاسي في الواقع أشد المواقف وأحفلها بالهول .. إننا ننسحب إلى حياة جديدة أو متجددة ، كما أحب أن أقول ، محتفظين — عن قناعة واعتزاز وتفكير — بالذي خلّفت لنا الحياة القديمة .. ان هذه الحياة القديمة تشمل حياة الجاهلية وحياتنا في الإسلام .. وان هذه الحياة المتجددة لتشمل كل الذي نرى ونسمع وما لم نر أو نسمع .. ومهمتنا أن نجوز عنق الزجاجة الضيق هذا بين مُتَسَمِّين ، كي نستطيع أن ننطلق — بالذي نحمل من تراثنا القديم — إلى دنيا هؤلاء الذي يحسّون بآدميتهم وانسانيتهم التي تنهاهم عن القعود والتخلف .

أليست براعة الخطة في ذلك وضمان النصر انما هو واجب المجمعيين ؟

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لقد قابلنا مثل هذه المآزق الحرجة من قبل .. كان في حياتنا العربية مثل هذه المنعطفات الخطيرة حين واجهنا التحدي اليوناني والروماني أواخر أيام الأمويين وأيام العباسيين .. فاستطعنا أن نجوز ذلك حين انقطعت منا طائفتان إلى عمل مختلف في ظاهره ولكنه متكامل متشابك :

احدى الطائفتين هي طائفة اللغويين والرواة الذين انطلقوا يفتشون عن كل لفظة ، ويسألون عن كل خبر ، ويستنطقون كل حجر وبشر ، حتى لم يبق في الجزيرة أعرابي لم يسألوه ولاموطئ قدم إلا وطئوه ...

والأخرى هي طائفة التراجمة ورجال المعرفة الذين ألقوا - أو حاولوا - بين الفكر الوافد واللغة المنطلقة .. وما أقول إن التاريخ يعيد نفسه .. ولكن التجربة الانسانية على مدى التاريخ تحمل كثيراً من العناصر المتشابهة التي يحسن بالناس أن يستفيدوا منها .

فأما المتفائلون الذين يغلب عليهم القعود فينصرفون إلى الاعتصام بما خُصَّتْ به العربية من غنى ، ويتحدثون عن تاريخها ويذكرون ما كان من أمرها : كيف دخلت على اللغات فنسختها ولم تَقْوَ لغة على نسخها ، وكيف دخلت على غيرها ولم يدخل غيرها عليها .

وأما المتفائلون الذين تتأجج في قلوبهم أنوار من حب العربية والغيرة عليها فيلحظون فرق ما بين التحدي الذي نواجهه اليوم والذي كنا واجهنا من قبل .. ذاك ، في الماضي ، لم يكن تحدياً فعالاً ، لم يكن متجدداً ، وانما كان هنالك ثقافة يونانية ورومانية دون أن يكون وراء هذه الثقافة سلطان ضخم يريد أن يغرق الناس بطوفانه .. أعني بثقافته ولغته ومسالكه في التعبير والتفكير والعمل ، كما هو شأن هذه الثقافات الغربية التي تواجهنا بسلطانها الضخم .. ولم تكن هذه الثقافة اليونانية والرومانية متجددة ، وانما كانت استوفت حظها من النشاط ، وبلغت قدرها من العطاء ، ثم انتهت إلى تجمد .. فلم يبق فيها إلا ما يختزن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الفكرُ بوجه عام من طاقات وقوى .. على حين نجد أن الثقافات الجديدة التي تطالعنا اليوم ثقافات لا تكاد تعرف التوقف أو التجمد .. إنها تقفز من الأرض إلى السماء ، وتجاوز السماء إلى الفضاء ، وتروح في هذا الفضاء تغزو أو تحاول كوكباً بعد كوكب .. ثم هي في الأرض تطلعُ كل يوم بجديد وتقص كل ساعة من يوم خبراً عن مستحدث .

مثل هذا التحدي المحدث ، بالسلطان الذي وراءه وبالحيوية المتجددة فيه ، يشكل خطراً اضخم على اللغة العربية ، وهو يستدعي بالتالي قدراً لا حدّ له من الجهد والنشاط والبذل ، وانه كذلك ليقتضي قدراً لا حدّ له من التكافل بين مجامعنا العربية كلها .. وقد كان مجمعنا كما يكون الأب تقدماً وحكمة ، وهو جدير أن يظل شعورُ المسؤولية عنده مؤججاً فيه مستبداً به ـ على ما كان من شأنه طيلة حياته ـ حتى لا يغلبه شعورُ الاطمئنان والرضا الذي يستبد بالآباء .

* * *

قلت إننا أمام عمل متشعب دقيق ، كثير التشعب كثير الدقة .. فاسمحوا لي ، يا سيدي الرئيس ، أن أشير إلى تشعبه وأن أقف عند دقته .

م ـ أما تشعبه فذلك أنه يتناول الماضي كما يتناول الحاضر ، وانه كذلك يلقي بظلاله وآثاره على المستقبل حتى لا أشك أن أقول ـ ولمَ أتردد ! ـ إنه يصوغه .. إننا أمام عشرات من الشعب بعضها يتصل بالعلوم ، وبعضها يتصل بألفاظ الحياة ، بعضها بتاريخ اللغة ومعاجمها ، وبعضها بأدبها : أدبها الذي أنشأته وأدبها الذي تنشئه .. ولعلّ من هذا التشعب أننا أمام صيانة اللغة وردّ هذه الموجات العاتية التي تقذفنا بها وسائل الإعلام .. حتى هنا في دمشق يا سيدي الرئيس ـ أضحت العامية ، حتى هنا ، مقدمة على الفصحى ، واخطأ أكثر من الصواب وما تبنيه المدرسة تهدمه لغة الإذاعة والصحافة والساسة ، وما يغرسه المعلمّ تقتلعه مجلات الأطفال ، بل لعلّ من هذا التشعب أننا نجد أنفسنا أمام تنشئة هذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الجيل الجديد ، أعني أمام برامجه ومناهجه ودراساته .. بل نحن أحياناً أمام معارك مصطنعة أو حقيقية حول الحرف العربي والخط العربي .. وهل أدل على التشعب من كل هذه الأشياء ؟

ب — وأما عن دقة هذا العمل ومداه البعيد ، فذلك أن أثره يجاوز أن يكون حلاً لأزمتنا اللغوية إلى أن يكون عاملاً أساسياً في حل أزمتنا الفكرية ، بحكم هذا الترابط العنيف والتشابك المتكائف بين اللغة والفكر .. وهل هنالك من يخالف في أن قسماً كبيراً من أزمتنا الفكرية إنما يرتد إلى أننا نقرأ بلغة ، ونتحدث بلغة ، ونحاضر بلغة ، ونفكر — وبخاصة أولئك الذين يتصلون منّا بالثقافات الأجنبية اتصالاً مباشراً — بلغة .. ؟

وهل من سبيل إلى نكران اننا نحدث حين نتحدث ألسنتنا ، ونتحدث كذلك حين تتحدث أفئدتنا وقلوبنا .. إن لتفكيرنا هجاءه ولغته ، كما أن لساننا هجاءه ولغته .. وإن الذين يُؤْتَوْن أكبر الحظوظ من التوفيق والذين يحفظون أنفسهم من تبديد الجهد ، إنما هم أولئك الذين يفكرون ويحاضرون باللغة الواحدة فلا يضطرون إلى شيء من هذا التعارض ، وإلى شيء من هذه الترجمة الداخلية التي نقوم بها .

إننا في كثير من المرات نتحدث عن الأزمة الفكرية وننسى هذا الارتباط بينها وبين اللغة ، وذلك قد يكون عن تبسيط وقد يكون عن بساطة ووهم ، وقد يكون اهتماماً منا بالأولى وانصرافاً عن الأخرى ، وهذا مبدأ الوهن .. إن في حياتنا الفكرية أزمة لا شك ، ولكنها ليست في رأيي — واسمحوا لي بقدر من الادعاء — أزمةٌ أصيلة ، فنحن نشق طرقنا الفكرية ، ونحن نعاني كثيراً من الصعوبات ، والأشواك دائماً ملء الطريق ، لأنه ليس في الدنيا هذا السبيل الممهد حتى بين الانسان ونفسه ... ولكن الأزمة الأصيلة هي في أننا ننسى أن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المحاولات الفكرية يجب أن تكون مسبوقة أو متواكبة مع المحاولات اللغوية .. وإلا فكيف نفكر ، ثم كيف نعمل ؟.. وهل يكون التفكير والعمل إلا بلغة ؟ وهل يتأتى للمرء أن يفكر الا بلغته ؟.. ودع عنك القلة التي تستطيع أن تستعير لغة أخرى ، فالكثرة المطلقة من الناس في حاجة إلى أن تجمع بين تفكيرها ولغتها في طبيعة واحدة وان تكثر بينهما في قرن .. بحيث يبدو أن أحدهما مشتق من الآخر .. وإلا ، إلا يكن ذلك ، فان هذه الكثرة من الناس لا تصيب حظا من فكر ولا حظا من لغة .

وكذلك يبدو واضحا أننا في النطاق الفكري المصرف في حاجة — ونحن على أول مراحل الطريق — إلى أن تكون اللغة أداتنا الأولى .. ثم تكون بعد ذلك المراحل الأخرى ، كأن ننسج ما بين اللغة وبين أصحابها هذه الخيوط من التعاطف والتجاوب والحب ، فلا تكون اللغة خصما يثير في نفوسنا النفرة ، ولا نقبل عليها والخوف يتملكنا ، وانما نوفرها ونيسرها دون خروج أو انحراف حتى نستطيع أن نضمن للفكر العربي كله أن يعمل في طلاقة وحرية ، أن يستخدم أداته اللغوية التي بها يتحقق ابداعه ، وتتجسد طاقاته ، دون أن ينصرف عنها أو يخشاها .

والذي نريده للفكر نريده كذلك للغة .. وإذا كنا نخشى على الكثرة المثقفة أن تخسر الفكر والمتعة ، فنحن — أريد المجموعين — نخشى ذلك أيضا على أنفسنا حين لا نستطيع أن نقدم للفكر هذه الأداة الطيعة المرنة ، محتفظة بكل دقتها وروعتها ، موصولة بجذورها ، متلائمة مع ماضيها .. إننا كذلك معرضون لا إلى أن نضحي بالفكر باسم سلامة اللغة ، بل إلى أن نقتل اللغة حين نفتقد أولئك الذين يفكرون بها فلا نجدهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

إن عملنا في هذا إنما ينبجس من إيماننا بلغتنا ، لغة قرآننا وتراثنا ، وترجمان أرواحنا ومواجدنا ، وتجسيد أفكارنا وعقولنا .. والإيمان بها هو الذي يقتضي الحفاظ عليها والتحبيب بها .. أما التنفير منها والتكريه بها فجهالة إن صدر من جهلاء وحماقة ان صدر عن علماء ، وكلاهما شر .

ما أصعب ما ينتظر مجامعنا اللغوية وما أشق مهماتها إذن ... ما أكثر ما ينتظرها من عمل طويل وليال قاسية بطيئة .. ما أكرم إيمان أصحابها برسالتهم حين يجدون أنهم لا يعيشون في منطقة الضوء من الحياة .. وما أطهرهم حين ينأون عن كل الأنوار المصطنعة الملونة ليقنعوا بهذه الأنوار الخفية التي يشعها الحرف ، وتنبض بها الكلمة ، وليكتفوا بالذي يلتمع في حياتهم الداخلية من ألق وبريق ..

* * *

سيدي الأستاذ الرئيس ، سادتي الزملاء

لقد استأذنتكم في أن أتحدث إليكم عن بيئتكم قبل أن أجوز إليها .. وكنت واثقا أنكم ستأذنون ، لأنكم مطمئنون إلى أني لن أتحدث في هذا كله إليكم ، وإنما أتحدث به إلى ذاتي .. لم أتحدث عما تفعلون فما أكثر ما تفعلون وانما تحدثت عن الذي ينتظر من مثلي أن يفعل .. كان ذلك تقريبا مني للمسؤولية الضخمة التي أحسستها .. وأصدقكم أني أيها الإخوة الزملاء ـ وليبارك الله تعالى مقامي بينكم ـ ما وجدت على كتفي عبئا كالذي وجدته ساعة تمثلت وقفتي هذه أمامكم .. لقد أضحى اذن هذا الدرب الطويل الذي لا تلتمع النجوم على جانبيه وانما تلتمع من أعماقه ـ دربي .. وما أشك ـ وقد ارتضيتم أن أقاسمكم أعباء الطريق ـ إلا أنكم جميعا آخذون بيدي كما يأخذ أخ راد الطريق يد أخ كان يتمثل هذا الطريق ويتخيله ويود لو يكون له مع هذه القافلة الرائدة التي لا تكذب أهلها ـ مكان .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ما أدري أكان هذا حديثي إلى نفسي أم عهداً مني إليكم .. ومهما يكن فانما يقدر الخطو ويخبُر الطريق أولئك الذين يصممون على إنفاذ الأمور على أذلالها .

سيدي الأستاذ الأمير أمين السر

ما كان أكرم خلقك وأغنى نفسك .. لقد تفضلت فأضفيت عليّ في تقديمك ثناءً لا أدري أين أنا منه .. ولعلّ عين الرضا ، ولسان المحبّ ، والقلب الطهور تعاونت ثلاثتها على أن تدفعك إلى ما قلتَ ، وقد جاوز الذي قلتَ قدري .. وانه لشرف لي عظيم إن استطعتُ أن أخلع منه جانب الزهوّ وأن أرتدي جانب العمل .

ولن يعوّض ذلك شيئاً من خسارتنا بالخليل الراحل ولن يؤهل أحداً لِتَبَوُّء مكانه .. وانما هو العزاء حتى نرضى ويرضى .

أيها السيد الرئيس أيها الإخوة الزملاء

لقد طوّقتم عنقي ، واني لأرجو أن أكون قادراً على النهوض بهذه الأمانة وعلى السير بها إلى أبعد آمادها ، والله من وراء القصد .

الدكتور شكري فيصل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net